وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الموصل
كلية الآداب
قسم الفلسفة

الأستاذ المساعد الدكتور نزار نجيب حميد الطائي

٢٠٢٦م ١٤٤٧هـ

المحاضرة الأولى: التعريف بعلم الكلام

١,١ مدخل تمهيدي

علم الكلام هو أحد أبرز العلوم الإسلامية وأكثرها إثارة للجدل على مر العصور. هو علم الهوية الإسلامية بامتياز، حيث مثّل الوعي النظري للأمة الإسلامية في مرحلة نضجها الفكري. إنه العلم الذي تصدى للدفاع عن العقيدة الإسلامية باستخدام أدوات العقل والمنطق، مما جعله جسراً مهماً بين النص الديني والفكر الفلسفي الوافد .

١,٢ تعريف علم الكلام

لغةً: اختلف الباحثون في سبب التسمية وسنأتي على ذكره لاحقاً، لكن الكلام في اللغة هو القول أو الحديث.

اصطلاحاً: عرّفه العلماء بتعاريف متعددة تكاملية:

– عرّفه عضد الدين الإيجي (صاحب "المواقف"): بأنه "العلم الذي يبحث فيه عن كيفية إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج والبراهين" . هذا التعريف يركز على الجانب الاحتجاجي والدفاعي للعلم.

– عرّفه الإمام الغزالي: بأنه "العلم الذي يراد به حفظ العقيدة الإسلامية من تشويه أهل البدع والأهواء" . هذا تعريف وظيفي يركز على هدف العلم.

– تعريف جامع: هو العلم الذي يبحث في الذات الإلهية والصفات وأفعال الله (كخلق القرآن والعدل) وأحوال الممكنات (كالنبوة والمعاد) وفق المنظور الإسلامي، مستنداً إلى الأدلة العقلية والنقلية معاً للوصول إلى اليقين أو غلبة الظن في المسائل العقدية.

١,٣ موضوع علم الكلام

– الموضوع الرئيسي: ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته، وما يتعلق بها من قضايا الوجود والكون والنبوة والمعاد.

– المسائل الأساسية: الإلهيات (توحيد الذات والصفات والأفعال)، النبوات، السمعيات (مثل الجنة والنار والشفاعة)، الإمامة (الخلافة) عند بعض الفرق .

– الغاية: الوصول إلى المعرفة اليقينية بالله، ونصرة العقيدة الإسلامية، ودفع الشبهات.

١,٤ أهمية دراسة علم الكلام للطالب الجامعي

– فهم التراث: لا يمكن فهم التاريخ الإسلامي أو الحركات الفكرية المعاصرة دون فهم الخلفيات الكلامية.

– تنمية الملكة العقلية: يعتبر علم الكلام مدرسة في الجدل والمنطق والتفكير المنظم، حيث يعوّد الطالب على حسن الصياغة ودقة التعبير.

– الوعي المقارن: يمكن الطالب من المقارنة بين الرؤية الإسلامية والرؤى الفلسفية الأخرى .

المحاضرة الثانية: عوامل نشأة علم الكلام

لم ينشأ علم الكلام في فراغ، بل كان نتاج تفاعل معقد لعدة عوامل داخلية وخارجية. ويمكن تقسيمها وفق رؤية المؤرخين مثل (علي سامي النشار) في كتابه "نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام" ، و (أحمد محمود صبحي).

٢,١ عوامل داخلية (نابعة من صميم المجتمع الإسلامي)

١. الخلافات السياسية (أثرها في نشأة الفرق):

– يرى الباحثون أن البذرة الأولى لعلم الكلام كانت سياسية بحتة. بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان ووقعة صفين، ظهرت أسئلة كبرى: من هو مرتكب الكبيرة؟ هل قاتل علي (رضي الله عنه) كان مؤمناً أم كافراً؟ هل التحكيم صواب أم خطأ؟

– هذه الأسئلة السياسية أنتجت فرقاً دينية كبرى: (الخوارج) الذين كفّروا علياً ومعاوية وأصحاب الجمل، (الشيعة) الذين جعلوا الإمامة أصلاً من أصول الدين، و(المرجئة) الذين أخّروا الحكم على مرتكب الكبيرة إلى الله. ومن هنا بدأ الجدل حول الإيمان والكفر، وهو جدل كلامي بامتياز.

٢. وجود آيات متشابهة في القرآن:

– وجود آيات متشابهة في القرآن الكريم (مثل آيات الصفات: اليد، الوجه، الاستواء) أثار تساؤلات حول كيفية فهمها. هل تُفهم على ظاهرها؟ أم تؤول؟ ظهور فرق كالمشبهة والمجسمة من جهة، والمعتزلة المؤولة من جهة أخرى، دفع العلماء لوضع قواعد للتأويل والجدل، مما ساهم في صياغة علم الكلام.

٢,٢ عوامل خارجية (التحدي الحضاري)

١. الغزو الثقافي وحركة الترجمة (بروز الفلسفة):

– مع اتساع الفتوحات الإسلامية في القرن الثاني والثالث الهجري، دخلت أمم ذات حضارات عريقة في الإسلام، مثل: الفرس (بالفلسفة والديانات القديمة)، والمصريين (بالتراث الهلنستي)، والروم (باللاهوت المسيحي واليوناني).

– حركة الترجمة في العصر العباسي (وخاصة في عهد المأمون) نقلت كتب الفلسفة اليونانية (أرسطو، أفلاطون) والمنطق إلى العربية . هذا التفاعل خلق تحدياً كبيراً:

– تحدي الدفاع: واجه المسلمون الهجمات الفكرية من الملاحدة والزنادقة والمسيحيين واليهود، فكان لا بد من الرد عليهم بنفس أسلحتهم العقلية.

– تحدي التمثل: بعض المسلمين تأثروا بهذه الفلسفات وحاولوا فهم الإسلام من خلالها، مما خلق فرقاً كلامية جديدة كالمعتزلة الذين وظفوا الفلسفة في خدمة التوحيد.

٢. طبيعة العقل البشري وحب الاستطلاع:

– بطبيعته، العقل البشري لا يقف عند حدود النص فقط، بل يسأل: كيف؟ ولماذا؟ أسئلة مثل: كيف نرى الله في الآخرة؟ ما حقيقة عذاب القبر؟ وكيف يجمع الله العظام وهي رميم؟ هذه التساؤلات الفطرية كانت وقوداً لحركة البحث الكلامي.

المحاضرة الثالثة: سبب التسمية (لماذا سمي "علم الكلام"؟)

هذه المسألة شغلت مؤرخي الفكر الإسلامي. لماذا سمي هذا العلم بهذا الاسم؟

أشهر الأقوال في سبب التسمية:

١. لقوة التأثير: قيل لأن المتكلمين كانوا يتكلمون في "الكلام الإلهي" (مسألة قدم القرآن وحدوثه)، وهي أشهر قضية كلامية في تاريخ الإسلام. فكثر الكلام في "الكلام" حتى سمي العلم به .

٢. لكونه أشهر وصف: قيل لأن المسألة الأولى التي ظهر بها الخلاف بين المسلمين كانت في "كلام الله" هل هو مخلوق أم غير مخلوق؟ فسمي العلم الذي يبحث في ذلك "علم الكلام" تيمناً بأشهر قضاياه.

٣. لقدرة المتكلم على الحوار: قيل لأن المتكلم (العالم بهذا الفن) يستطيع أن "يتكلم" ويدافع عن عقيدته بقوة ويفحم خصومه بالحجة. فسمي العلم باسم "الكلام" لأن آثره يظهر في الكلام والمحاججة.

٤. للاتصال بالمنطق والفلسفة: قيل لأن هذا العلم أدخل "منطق أرسطو" و"فلسفة اليونان" في صلب البحث الديني، وجعل "الكلام" في هذه الأمور العقلية الدقيقة علماً قائماً بذاته.

٥. رأي آخر (عمر فروخ): يرى بعض الباحثين مثل عمر فروخ أن التسمية قد تكون مشتقة من "علم المنطق" الذي هو آلة الكلام الصحيح، ولكن هذا الرأي أقل شيوعاً.

المحاضرة الرابعة: الفرق بين علم الكلام والعلوم الإسلامية الأخرى

٤,١ علم الكلام والفقه (الفرق بين الاعتقاد والعمل)

– الموضوع:

– علم الكلام: موضوعه (الاعتقاد) (ما يجب تصديق به بالقلب). يبحث في أصول الدين (الإلهيات، النبوات).

– الفقه: موضوعه (العمل) (ما يجب فعله بالجوارح). يبحث في فروع الدين (العبادات، المعاملات، الأحوال الشخصية).

– الغاية:

– الكلام: يصحح العقيدة ويحقق الإيمان.

– الفقه: يصحح العبادة والمعاملات ويحقق الشريعة.

– مصدر الخلاف: الخلاف في الكلام يعد خلافاً في أصل الدين (مثلاً: هل الله يرى في الآخرة؟). الخلاف في الفقه يعد خلافاً في فروعه (مثلاً: كيفية صلاة التطوع).

٤,٢ علم الكلام والفلسفة (الفرق بين المنهج والغاية)

هذا الفرق دقيق وأحياناً يكون متداخلاً، لكنه جوهري.

– من حيث نقطة الانطلاق:

– المتكلم: ينطلق من (النص الديني) (الوحي) كمسلمة يقينية، ثم يبحث عن الأدلة العقلية التي تؤيده وتدافع عنه. هو (يؤمن ثم يستدل).

– الفيلسوف: ينطلق من (العقل المحض) كحكم نهائي. لا يسلم بشيء ما لم يثبته عقله بالبرهان، حتى لو كان الوحي. هو (يستدل ثم يؤمن) (أو لا يؤمن) بما ينتهي إليه عقله.

– من حيث الموضوعات:

– علم الكلام: محصور في حدود العقيدة الإسلامية (توحيد، عدل، نبوة، معاد).

– الفلسفة: موضوعها أشمل، فهي تبحث في (الوجود المطلق) (ما وراء الطبيعة)، ونظرية المعرفة، والأخلاق، والسياسة، والطبيعة، بغض النظر عن كون هذه الموضوعات إسلامية أم لا.

– من حيث المنهج:

– الكلام: يستخدم الجدل والمنطق للوصول إلى نتيجة محددة مسبقاً (نصرة العقيدة).

– الفلسفة: تهدف إلى الوصول إلى الحقيقة بغض النظر عن أي انتماء مذهبي (على الأقل نظرياً).

٤,٣ علم الكلام والتصوف (الفرق بين البرهان والوجدان)

– الوسيلة:

– علم الكلام: وسيلته (العقل والبرهان) والجدل المنطقي.

– التصوف: وسيلته (القلب والذوق) والمجاهدة والرياضة الروحية.

– الهدف:

– علم الكلام: يسعى إلى (معرفة الله) معرفة نظرية يقينية (إثبات وجوده وصفاته).

– التصوف: يسعى إلى (الوصول إلى الله) معرفة وجدانية وشهودية (الوصال والفناء).

– العلاقة بينهما:

– كان بينهما عداء في البداية (اتهام المتصوفة للمتكلمين بالجمود، واتهام المتكلمين للصوفية بالحلول والاتحاد).

– ثم حدث تداخل وتصالح، خاصة مع ظهور شخصيات مثل (الغزالي) الذي أدخل الذوق الصوفي في علم الكلام، وظهر ما يعرف بـ"الكلام الصوفي" أو "التصوف الفلسفي".

قائمة المصادر والمراجع الأساسية للمحاضرات

١. أحمد محمود صبحي: في علم الكلام (الأجزاء الثلاثة: المعتزلة، الأشاعرة، الزيدية) – يعتبر مرجعاً أساسياً للدراسة الأكاديمية.

٢. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام – لدراسة النشأة والتطور.

٣. عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي – للسياق التاريخي والفكري العام.

٤. عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة (فصل في العلوم العقلية والنقلية).

٥. الشهرستاني: الملل والنحل – للتعرف على الفرق والمذاهب.

٦. مصطفى عبد الرازق: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية – لدراسة العلاقة بين الكلام والفلسفة.

سلسلة محاضرات علم الكلام (فرقة المعتزلة)

مقدمة عامة

تعد المعتزلة من أكثر الفرق الكلامية تأثيرًا في تاريخ الفكر الإسلامي، وقد مثل ظهورها نقطة تحول كبرى في طريقة تناول قضايا العقيدة. فقد كانت المعتزلة أول من جعل العقل منهجًا أساسيًا في فهم الدين والدفاع عنه، فأسسوا بذلك ما يمكن تسميته "الفلسفة الإسلامية" الأولى.

هذه السلسلة من المحاضرات تهدف إلى تقديم دراسة متعمقة وشاملة للمعتزلة، تشمل نشأتهم وتطورهم، أصولهم الفكرية الخمسة التي تميزوا بها عن سائر الفرق، وأبرز شخصياتهم التي أسهمت في بناء هذا المذهب وتطويره عبر العصور. سنعتمد في ذلك على أبرز المصادر الأكاديمية، وفي مقدمتها كتاب الدكتور أحمد محمود صبحي "في علم الكلام" الذي يعد من أهم المراجع في هذا المجال، بالإضافة إلى أعمال الدكتور علي سامي النشار والدكتور عمر فروخ وغيرهم من مؤرخي الفكر الإسلامي.

المحاضرة الأولى: النشأة والتسمية – السياق التاريخي والفكري لظهور المعتزلة

١,١ المقدمة: أين ومتى ولدت المعتزلة؟

قبل الخوض في تفاصيل نشأة المعتزلة، لا بد أن نقف لحظة أمام سؤال أساسي: لماذا ظهر هذا التيار العقلاني بالتحديد في البصرة؟ ولماذا في تلك الفترة بالذات من تاريخ الإسلام؟

الجواب المختصر: لأن البصرة كانت في ذلك الوقت بوتقة تنصهر فيها الثقافات والأفكار المتنوعة. فقد كانت مدينة حدودية تتعامل مع الفرس والهنود، وكانت مركزًا تجاريًا وفكريًا حيويًا، كما كانت مسرحًا للأحداث السياسية الكبرى التي شهدتها الأمة الإسلامية بعد مقتل عثمان رضي الله عنه.

الزمان: أواخر القرن الأول الهجري وبدايات القرن الثاني (حوالي ٨٠–١١٠هـ / ٦٩٩–٧٢٨م)، وهي فترة شهدت:

١. استقرار الدولة الأموية وتوسعها الكبير.

٢. دخول أمم وثقافات جديدة إلى الإسلام.

٣. ظهور فرق دينية وسياسية متعددة.

٤. بداية التدوين في العلوم المختلفة.

١,٢ الجذور الفكرية: من أين استقى المعتزلة أفكارهم؟

لا يمكن فهم المعتزلة بمعزل عن التيارات الفكرية التي سبقتهم أو عاصرتهم. يمكن تتبع الجذور الفكرية للمعتزلة في ثلاثة مصادر رئيسية:

أولاً: القدرية – البذرة الأولى للعقلانية الإسلامية

ظهرت القدرية في أواخر عصر الصحابة كرد فعل على فكرة الجبر التي كانت منتشرة بين بعض المسلمين. أهم رموز القدرية:

معبد الجهني (ت ٨٠هـ / ٦٩٩م):

– كان من أوائل من قال بخلق أفعال العباد وأن الإنسان مسؤول عن عمله.

– قتله الحجاج بن يوسف الثقفي بتهمة الإرجاء ونفي القدر.

– يقول عنه العلماء: "أول من تكلم في القدر بالبصرة معبد الجهني".

غيلان الدمشقي (ت ١٠٥هـ / ٧٢٣م):

– كان من كبار الدعاة إلى حرية الإرادة وخلق أفعال العباد.

– قتله الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك بسبب آرائه.

هذه القدرية كانت النواة الأولى لما سيصبح لاحقًا "أصل العدل" عند المعتزلة. فالمعتزلة ورثوا عنهم فكرة أن الله لا يخلق أفعال العباد، وأن الإنسان هو المسؤول عن أعماله، وعليه يستحق الثواب أو العقاب.

ثانيًا: الجهمية – الجذور الفلسفية لإنكار الصفات

الجهم بن صفوان (ت ١٢٨هـ / ٧٤٥م):

– كان من أوائل من أنكر صفات الله الأزلية.

– قال بخلق القرآن ونفى رؤية الله في الآخرة.

– قتله مسلم بن أحوز في خراسان بسبب آرائه.

أخذ المعتزلة عن الجهمية نظرية التوحيد (نفي الصفات) وخلق القرآن، لكنهم طوروها وأضافوا إليها أبعادًا جديدة.

ثالثًا: الخوارج والمرجئة – الجدل حول مرتكب الكبيرة

– الخوارج: قالوا إن مرتكب الكبيرة كافر يستحق الخلود في النار.

– المرجئة: قالوا إن مرتكب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان، وأرجأوا الحكم عليه إلى الله.

– الحسن البصري: قال إن مرتكب الكبيرة منافق.

هذا الجدل الحاد حول مصير مرتكب الكبيرة هو الذي دفع واصل بن عطاء إلى طرح مبدأ "المنزلة بين المنزلتين".

١,٣ قصة النشأة: اعتزال واصل بن عطاء

المشهد التاريخي

يحكي المؤرخون قصة شهيرة تعيدنا إلى مجلس الحسن البصري (٢١–١١٠هـ) في مسجد البصرة. كان الحسن البصري من كبار التابعين، عالمًا فقيهًا زاهدًا، يجتمع حوله طلاب العلم من كل مكان. وكان من بين هؤلاء الطلاب شابان نبيهان: (واصل بن عطاء) و(عمرو بن عبيد).

الجدل حول مرتكب الكبيرة

جاء يوم إلى مجلس الحسن البصري، فسأله واصل بن عطاء قائلاً: "يا إمام الدين، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر.. وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر.. فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقادًا؟"

تأمل الحسن البصري السؤال، وأراد أن يجيب، لكن واصلًا بادر قبل أن يتكلم قائلاً: "أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق، بل هو في منزلة بين المرتبتين لا مؤمن ولا كافر".

ثم قام واصل وذهب إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد، وجلس هناك منفردًا يعلم طلابه الذين اتبعوه.

عندها قال الحسن البصري: "اعتزل عنا واصل".

فسمي واصل ومن معه "المعتزلة".

تحليل هذه الرواية

هذه الرواية، وإن كانت مشهورة، إلا أنها تثير عدة تساؤلات:

١. لماذا بادر واصل بالجواب قبل أن يجيب شيخه؟

– يدل هذا على ثقته بنفسه، وعلى أنه كان قد بلور مذهبه قبل هذا الموقف.

٢. ما موقف عمرو بن عبيد من هذه الحادثة؟

– يذكر بعض المصادر أن عمرو بن عبيد انضم إلى واصل، فكانا معًا رائدي المذهب الجديد.

٣. هل انتهت القصة عند هذا الحد؟

– لا. بل كانت هذه بداية لحركة فكرية كبيرة انتشرت في البصرة ثم بغداد ثم سائر الأمصار الإسلامية.

١,٤ التطور التاريخي للمعتزلة

يمكن تقسيم تاريخ المعتزلة إلى مراحل رئيسية:

المرحلة الأولى: التأسيس (أواخر القرن الأول – منتصف القرن الثاني)

الرموز: واصل بن عطاء (٨٠–١٣١هـ)، عمرو بن عبيد (ت ١٤٤هـ).

الخصائص:

– التركيز على المسائل العملية: الإيمان والكفر، المنزلة بين المنزلتين.

– البساطة النسبية في الطرح.

– الانتشار في البصرة بشكل أساسي.

المرحلة الثانية: الازدهار والانتقال إلى بغداد (منتصف القرن الثاني – أواخر القرن الثالث)

الرموز: أبو الهذيل العلاف (ت ٢٣٥هـ)، إبراهيم بن سيار النظام (ت ٢٣١هـ)، ثم أبو علي الجبائي (ت ٣٠٣هـ).

الخصائص:

- مزج علم الكلام بالفلسفة اليونانية.
- وضع الأسس النظرية للأصول الخمسة.
- الانتقال إلى بغداد، عاصمة الخلافة العباسية.
- ظهور المدرسة البصرية والمدرسة البغدادية.

المرحلة الثالثة: ذروة النفوذ ومحنة خلق القرآن (أواخر القرن الثاني – منتصف القرن الثالث)

الخلفاء الذين تبنوا المذهب:

- المأمون (١٩٨–٢١٨هـ): أعلن القول بخلق القرآن مذهبًا رسميًا للدولة، وأقام محنة المعتزلة (محنة خلق القرآن)، حيث كان يمتحن العلماء والقضاة ويضربهم إذا لم يوافقوه على رأيه.
- المعتصم (٢١٨–٢٢٧هـ): استمر في سياسة المأمون، وشهدت فترة محنة الإمام أحمد بن حنبل.
- الواثق (٢٢٧–٢٣٢هـ): استمر في سياسة سلفيه.

نهاية المحنة:

في عهد المتوكل (٢٣٢–٢٤٧هـ) تغيرت السياسة، وعادت الدولة إلى مذهب أهل السنة، وبدأ اضطهاد المعتزلة واتهامهم بالزندقة.

المرحلة الرابعة: الانقسام والتراجع (القرن الرابع – الخامس)

الانقسام الكبير:

حدث خلاف بين أبي علي الجبائي (شيخ المعتزلة في البصرة) وابنه أبي هاشم (ت ٣٢١هـ) في مسألة "الأحوال" (وهي مسألة فلسفية دقيقة حول صفات الله). انقسم المعتزلة على إثر ذلك إلى:

- الجبائية: أتباع أبي علي الجبائي.
- الهاشمية (أو البهشمية): أتباع أبي هاشم الجبائي.

انشقاق الأشعري:

أبو الحسن الأشعري (٢٦٠–٣٢٤هـ) كان من تلاميذ أبي علي الجبائي، ثم خرج عن المعتزلة وأسس مذهبًا جديدًا (الأشعرية) جمع فيه بين العقل والنقل. انشقاق الأشعري كان ضربة قوية للمعتزلة.

المرحلة الخامسة: البقاء في الظل (القرن الخامس – حتى اليوم)

استمرت المعتزلة كفرقة كلامية، لكن نفوذها تراجع بشكل كبير. بقي أتباعها في بعض المناطق (مثل اليمن والمغرب)، واستمر إنتاجهم الفكري لكن دون النفوذ السياسي الذي كان لهم في السابق.

١,٥ قضية التسمية: لماذا "المعتزلة"؟

كما رأينا، أشهر الروايات تذكر أن التسمية جاءت من اعتزال واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري . لكن هناك روايات أخرى تستحق التأمل:

الرواية الأولى: اعتزال مجالس السوء

يرى بعض الباحثين أن التسمية جاءت لأنهم اعتزلوا أهل البدع والضلال، واعتزوا بمنهجهم القائم على التوحيد والعدل.

الرواية الثانية: اعتزال الفرق الأخرى

قيل إنهم اعتزلوا فرقتين:

– الخوارج: الذين كفّروا مرتكب الكبيرة.

– المرجئة: الذين أخّروا الحكم عليه إلى الله.

فكانوا وسطًا بينهما.

الرواية الثالثة: اعتزال السياسة

يذكر بعض المؤرخين أن واصل بن عطاء وأتباعه اعتزلوا العمل السياسي بعد فتنة صفين والجمل، وانصرفوا إلى الجدل الفكري فقط.

تحليل الدكتور أحمد محمود صبحي

يرى الدكتور صبحي في كتابه "في علم الكلام" أن تسمية "المعتزلة" لم تكن في البداية تسمية اختارها أتباع هذا المذهب لأنفسهم، بل كانت تسمية أطلقها عليهم خصومهم. ثم أصبحت بعد ذلك اسماً علمياً للمذهب.

١,٦ مناهجهم في الاستدلال

أحد أهم ما يميز المعتزلة هو منهجهم في الاستدلال. يمكن تلخيصه في النقاط التالية:

أولاً: العقل هو الأصل والحاكم

يقول القاضي عبد الجبار الهمداني (أحد كبار المعتزلة): "فإن الأدلة الشرعية ليست فقط ثلاثة: هي الكتاب والسنة والإجماع، بل هي أربعة والعقل واحد منها بل هو أولها، وهو الحاكم فيها... لأن الله تعالى لم يخاطب إلا أهل العقل، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة والإجماع، فهو الأصل في هذا الباب".

المعتزلة يرون أن:

- العقل يمكنه معرفة الحسن والقبح قبل ورود الشرع.
- العقل يمكنه معرفة وجود الله وصفاته.
- العقل هو الذي يحكم على صحة النقل ووجوب العمل به.

ثانيًا: شروط قبول الخبر

وضع المعتزلة شروطًا صارمة لقبول الأخبار (الأحاديث)، خاصة واصل بن عطاء:

- لا يقبلون خبر الآحاد في مسائل العقيدة (على عكس أهل السنة).
- يشترطون في الخبر المقبول أن يكون متواترًا أو مجمعًا عليه.
- يرفضون أي خبر يخالف العقل، حتى لو كان في أعلى درجات الصحة.

يقول الدكتور أحمد محمود صبحي: إن واصل بن عطاء وضع قاعدة في قبول الأخبار، وهي أن المقبول من الأخبار هو ما لا يحتمل التواطؤ على الكذب عقلاً.

ثالثًا: الجمع بين العقل والنقل

رغم تقديمهم العقل على النقل، فإن المعتزلة لم يتخلوا عن النصوص تمامًا. يقول الدكتور محمد عمارة عنهم: "هم لم يصنعوا صنيع الفلاسفة الذين ركنوا إلى العقل دون النقل... بل جمعوا بين العقل والنقل، ثم جعلوا العقل حاكمًا تعرض عليه النصوص ليفضي فيما يبدو أحيانًا من تعارض بين ظواهرها وبين براهين العقول".

١,٧ مكانة المعتزلة في تاريخ الفكر

كانت المعتزلة أول من أدخل المنطق والفلسفة اليونانية إلى علم الكلام الإسلامي. يقول الدكتور علي سامي النشار في كتابه "نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام": "كان متكلمو المعتزلة هم فرسان علم الكلام الإسلامي، الذين اتخذوا من العقل سبيلاً لتقرير العقائد الدينية، ودفع الشبهات عنها".

أهمية المعتزلة تتجلى في:

١. تأسيس علم الكلام: هم أول من نظم علم الكلام كعلم مستقل له أصوله وقواعده.

٢. الدفاع عن الإسلام: تصدوا لهجمات الملاحدة والزنادقة وأصحاب الديانات الأخرى.

٣. نشر الإسلام: ساهموا في نشر الإسلام بين الشعوب ذات الموروثات الفكرية العقلانية.

٤. التأثير في الفكر اللاحق: حتى خصومهم (كالأشاعرة) تأثروا بمناهجهم وأساليبهم.

المحاضرة الثانية: الأصول الخمسة – البنية النظرية للمذهب المعتزلي

مقدمة: ما الأصول الخمسة؟

قبل الخوض في تفاصيل الأصول الخمسة، لا بد أن نفهم أنها ليست مجرد مبادئ نظرية، بل هي البنية العقلية والعقائدية التي قام عليها المذهب المعتزلي بأكمله. يقول أبو الحسين الخياط (أحد كبار المعتزلة): "ليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة... فإذا كملت في الإنسان هذه الخصال الخمس؛ فهو معتزلي".

هذه الأصول هي:

١. التوحيد (نفي الصفات وخلق القرآن)

٢. العدل (خلق أفعال العباد وإنكار القدر)

٣. الوعد والوعيد (وجوب تنفيذ الوعد والوعيد)

٤. المنزلة بين المنزلتين (حكم مرتكب الكبيرة)

٥. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (وجوب التغيير حتى بالسلاح)

٢,١ الأصل الأول: التوحيد – التطهير من الشرك

مفهوم التوحيد عند المعتزلة

التوحيد عند المعتزلة ليس مجرد الإقرار بوحدانية الله في الربوبية والألوهية، بل هو مشروع فكري كامل يهدف إلى تطهير الاعتقاد من كل ما يرونه شركًا.

أ. نفي الصفات الأزلية

هذا هو أشهر آراء المعتزلة وأكثرها إثارة للجدل. يقول المعتزلة: لا يجوز إثبات صفات أزلية لله قائمة به (كالعلم والقدرة والحياة)، لأن ذلك يستلزم تعدد القدماء، وهو شرك.

الدليل العقلي (الذي وضعه أبو علي الجبائي): "إن الباري سبحانه وتعالى قديم، وقدمه أخص وصفه، فلو ثبتت له صفة قديمة لشاركته في أخص الوصف، والاشتراك في الأخص يوجب الاشتراك في الأعم".

شرح هذا الدليل:

– الله قديم بذاته.

– لو قلنا إن لله علمًا قديمًا، فهذا العلم هو أيضًا قديم.

– يلزم من ذلك وجود قديمين (الله والعلم)، وهذا شرك عندهم.

– إذن لا بد من القول: إن الله عالم بذاته لا بعلم، قادر بذاته لا بقدرة.

موقفهم من النصوص التي تثبت الصفات:

يؤول المعتزلة الآيات التي تثبت الصفات (كاليد والوجه والاستواء) تأويلاً يتوافق مع مذهبهم. فـ"اليد" تؤول إلى القدرة، و"الوجه" تؤول إلى الذات، و"الاستواء" تؤول إلى الاستيلاء.

ب. نفي رؤية الله في الآخرة

ينكر المعتزلة رؤية الله في الآخرة، ويؤولون الآيات التي تشير إلى ذلك:

- ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ سورة القيامة: ٢٣

يؤولون "ناظرة" بمعنى: تنتظر الثواب.

أدلتهم العقلية:

١. الرؤية تستلزم أن يكون المرئي في جهة مقابل الرائي، والله منزه عن الجهة.

٢. الرؤية تستلزم أن يكون المرئي جسمًا، والله منزه عن الجسمية.

٣. لو جازت رؤية الله لجاز أن يكون في جهة، وهذا محال.

ج. خلق القرآن

يرى المعتزلة أن القرآن الكريم مخلوق، وأن ما في المصاحف هو حكاية عن كلام الله، وليس هو كلام الله الأزلي.

أدلتهم:

١. القرآن يتكون من حروف وأصوات، وكل ما هو حرف وصوت فهو حادث.

٢. لو كان القرآن قديمًا لكان معنى ذلك وجود قديم مع الله.

٣. الآيات الدالة على حدوث القرآن (كقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ سورة الزخرف: ٣).

د. نفي التشبيه

ينفي المعتزلة التشبيه عن الله من كل وجه:

- لا جهة لله.
- لا مكان لله.
- لا جسم لله.
- لا تحيز لله.
- لا انتقال لله.

٢,٢ الأصل الثاني: العدل – تنزيه الله عن الظلم

مفهوم العدل

العدل عند المعتزلة يعني: أن الله لا يفعل القبيح، ولا يخل بما هو واجب عليه. يقولون: لو فعل الله القبيح لكان ظالمًا، والظلم منزه عنه. ولو خلف وعده لكان كاذبًا، والكذب محال عليه.

تفريعات العدل

١. خلق أفعال العباد (العدل في التكليف)

ينفي المعتزلة أن يكون الله خالقًا لأفعال العباد، ويسندونها إلى قدرة العبد وإرادته. يقولون: العباد هم الخالقون لأفعالهم.

لماذا؟

– لأن الله لو كان خالقًا لأفعال العباد، لكان هو خالق الكفر والمعصية.

– وخالق الكفر والمعصية يكون ظالمًا إذا عاقب عليها.

– والله منزه عن الظلم.

– إذن العباد هم خالقو أفعالهم.

النقد الموجه لهذا الرأي:

أهل السنة يقولون: الله خالق كل شيء، والكفر والمعصية من "أفعال" العباد التي خلقها الله، لكن الله لا يُوصف بالكفر أو المعصية لأنها صفات فعل العبد، لا صفات الله. والعقاب على الكفر والمعصية ليس ظلمًا لأن العبد اكتسبها بإرادته.

٢. نفي القدر (بالمعنى الذي يفهمه المعتزلة)

يرى المعتزلة أن القول بالقدر (بمعنى أن الله خلق كل شيء) يتنافى مع العدل. لذلك ينفون أن يكون الله قدر الشر على عباده.

٣. نفي التكليف بما لا يطاق

يرى المعتزلة أن الله لا يكلف العباد ما لا يطيقون. يقولون: التكليف بما لا يطاق قبيح، والله لا يفعل القبيح. فكل ما كلفنا الله به فهو في حدود طاقتنا.

٤. اللطف الواجب على الله

يرى المعتزلة أن الله يجب عليه أن يفعل اللطف بعباده ليدفعهم إلى الطاعة. فلو تركهم دون لطف لكان مقصرًا في حقهم.

تعريف اللطف عندهم: هو ما يقرب العبد إلى الطاعة ويبعده عن المعصية، من غير أن يصل إلى حد الإلجاء.

٥. أطفال المشركين

يرى المعتزلة أن أطفال المشركين لا يعذبون بذنوب آبائهم، لأن ذلك ظلم. وهم (عند بعضهم) من أهل السلامة: لا في الجنة ولا في النار.

موقفهم من النصوص التي تثبت القدر

يؤول المعتزلة الآيات الدالة على القدر، مثل:

- ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ سورة القمر: ٤٩
- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ سورة الصافات: ٩٦

يؤولونها بأن "ما" في الآية الثانية مصدرية، أي: "والله خلقكم وعملكم" بمعنى: خلق لكم العمل.

وينكرون الأحاديث الصحيحة التي تثبت القدر، مثل حديث جبريل المشهور: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره".

٢,٣ الأصل الثالث: الوعد والوعيد – جدلية الثواب والعقاب

المفهوم الأساسي

يعتقد المعتزلة أن الله وعد المطيعين بالثواب، وتوعد العصاة بالعقاب، وأنه (لا بد أن ينفذ وعده ووعيده). لأن الخلف في الوعد والوعيد يستلزم الكذب، والكذب محال على الله.

النتائج المترتبة

١. تخليد مرتكب الكبيرة في النار

من مات على كبيرة من غير توبة، يستحق بمقتضى الوعيد النار خالدًا فيها. وكل من دخل النار فهو مخلد فيها.

لماذا التخليد؟

لأن الله توعد بالنار على الكبيرة، وتوعد بالتخليد، والوعيد لا بد أن ينفذ.

الاستثناء:

لا يخلد في النار إلا من مات على كبيرة (كالزنا والسرقة وشرب الخمر). أما من مات على صغيرة فهو تحت المشيئة.

٢. إنكار الشفاعة

يرد المعتزلة الأحاديث الواردة في شفاعة النبي ﷺ لعصاة المؤمنين من أهل الكبائر. لأن الشفاعة معناها إسقاط العقاب المستحق، وهذا مخالف للوعيد.

تأويلهم للآيات:

- ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ سورة الأنبياء: ٢٨، يقولون: الشفاعة تكون للمؤمنين المطيعين فقط، وليس لعصاة المؤمنين.

٣. نفي المشيئة في المغفرة

يرى المعتزلة أن المغفرة والعذاب ليسا متعلقين بالمشيئة الإلهية. ويؤولون قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ سورة النساء: ٤٨.

تأويلهم: "لمن يشاء" أي لمن يستحق المغفرة ممن اجتنب الكبائر.

مناظرة بين الجبائي والأشعري في هذه المسألة

هذه من أشهر المناظرات في تاريخ علم الكلام، وتظهر الفرق بين المذهبين بوضوح:

الأشعري يسأل أبا علي الجبائي: "ما تقول في ثلاثة أخوة، أحدهم كان مؤمنًا برًا تقيًا، والثاني كان كافرًا فاسقًا، والثالث مات صبيًا؟"

أجاب الجبائي: "أما الزاهد ففي الدرجات، وأما الكافر ففي الدركات، وأما الصبي فمن أهل السلامة."

قال الأشعري: "فإن أراد الصغير أن يصعد إلى درجات أخيه الزاهد، فهل يؤذن له؟"

قال الجبائي: "لا، لأنه يقال له: إن أخاك إنما وصل إلى هناك بعمله."

قال الأشعري: "فإن قال الصبي: ما التقصير مني؛ فإنك ما أبقيتني ولا أقدرتني على الطاعة؟"

قال الجبائي: "يقول الله له: كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت ولا استحقيت العذاب، فراعيت مصلحتك."

قال الأشعري: "فلو قال الأخ الكافر: يارب كما علمت حاله فقد علمت حالي، فلم راعيت مصلحته دوني؟!"

هنا انقطع الجبائي ولم يستطع الإجابة.

٢,٤ الأصل الرابع: المنزلة بين المنزلتين – وسطية المعتزلة

المفهوم الأساسي

هو الأصل الذي انفردت به المعتزلة وتميزت به عن سائر الفرق . معناه: أن مرتكب الكبيرة يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر، بل هو في منزلة بين المنزلتين – ليس بمؤمن ولا كافر – ويسمى "فاسقًا".

الموقف من الفرق الأخرى

ت	الفريق	موقف مرتكب الكبيرة عندهم
١.	الخوارج	كافر
٢.	المرجئة	مؤمن كامل الإيمان
٣.	الحسن البصري	منافق
٤.	المعتزلة	في منزلة بين المنزلتين (فاسق)

مسمى "الفاسق"

يسمي المعتزلة مرتكب الكبيرة "فاسقًا"، وهو مسمى قرآني: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ﴾ سورة السجدة: ١٨.

الفاسق عندهم:

- ليس بمؤمن، لأن الإيمان يستلزم الطاعة.
- ليس بكافر، لأن الكفر يستلزم الجحود.
- هو في منزلة وسط.

آثار هذا الأصل في موقفهم من الصحابة

تأثر موقف المعتزلة من الصحابة بهذا الأصل، خاصة في قضية الجمل وصفين:

- اعتبروا أن الفريقين (عليًا ومعاوية) على خطأ أو أن أحدهما مخطئ.
- وضعوهم في "المنزلة بين المنزلتين".
- قالوا: لا نزكي أحدًا منهم ولا نقدح فيه.

٢,٥ الأصل الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – واجب التغيير

المفهوم الأساسي

المعروف: كل فعل عرف فاعله حسنه أو دل عليه.

المنكر: كل فعل عرف فاعله قبحه أو دل عليه.

هذا الأصل متفق عليه بين المعتزلة وأهل السنة، لكن الخلاف في كيفية تطبيقه.

موقف المعتزلة في التغيير

يرى المعتزلة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، ويجب أن يبدأ بالرفق، فإن لم ينفع فبالشدة، فإن لم ينفع فبالسيف.

ترتيب التغيير عندهم:

١. باللسان (الرفق والنصيحة)

٢. باليد (الشدة)

٣. بالسيف (القتال)

وهذا مخالف للترتيب النبوي: "من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه".

الخروج على السلطان الجائر

أوجب المعتزلة الخروج على السلطان الجائر إذا لم يمكن تغيير المنكر بغيره. وهذا الموقف قريب من موقف الخوارج، مما جعلهم عرضة للاتهام بالتشبه بهم.

موقفهم من السنة في هذا الأصل

وضع المعتزلة منهجًا خاصًا في التعامل مع السنة النبوية:

– عرض الحديث على القرآن.

– ما خالف القرآن –ولو مخالفة ظاهرية يمكن الجمع بينها– ردوه.

– لا يقبلون الحديث إذا كان راويه من أصحاب الكبائر.

المحاضرة الثالثة: نماذج من شخصيات المعتزلة مع طرح آرائهم الكلامية

٣,١ واصل بن عطاء (٨٠–١٣١هـ / ٦٩٩–٧٤٨م) – المؤسس

سيرته وحياته

هو واصل بن عطاء بن واصل الغزال، مولى بني مخزوم. ولد في المدينة المنورة، ثم انتقل إلى البصرة طلبًا للعلم.

نشأته العلمية:

– تتلمذ على يد عبد الله بن محمد بن الحنفية (تلميذ علي بن أبي طالب).

– ثم دخل مجلس الحسن البصري، وكان من أبرز تلاميذه.

– تأثر بالتيار العقلاني في البصرة، وخاصة بالقدرية.

شخصيته:

– كان يتمتع بقوة وصلابة في شخصيته.

– بلاغة وبيان في منطقه، رغم أنه كان ألثغ في الراء.

– يروى عنه أنه نظم خطبة طويلة خلت جميعها من حرف الراء، حتى لا يظهر عيبه.

عبادته وورعه:

تقول زوجته عنه: "كان واصل إذا جنّه الليل صف قدميه يصلي، ولوح ودواة موضوعان، فإذا مرت آية فيها حجة على مخالف جلس فكتبها، ثم عاد في صلاته".

آراؤه الكلامية

١. المنزلة بين المنزلتين

هو أول من طرح هذا المبدأ، الذي أصبح ركنًا أساسيًا من أركان المذهب.

صياغته للمبدأ: "أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق، بل هو في منزلة بين المرتبتين لا مؤمن ولا كافر."

٢. نظريته في قبول الأخبار

وضع واصل بن عطاء نظرية متطورة في قبول الأخبار:

شروط قبول الخبر:

– أن يكون الخبر متواترًا (مجتمعًا عليه).

– أن لا يحتمل التواطؤ على الكذب عقلاً.

– أن لا يخالف العقل.

نتائج هذه النظرية:

– رفض أحاديث الآحاد في مسائل العقيدة.

– تقديم العقل على النقل في حالة التعارض.

٣. آراؤه في التوحيد والعدل

– كان يرى نفي الصفات عن الله.

– كان يرى القول بخلق أفعال العباد.

– كان ينكر القدر بالمعنى الذي يفهمه المعتزلة.

مؤلفاته

ألف واصل بن عطاء العديد من الكتب، منها:

– كتاب "الألف" – مسألة في الرد على المانوية.

– كتاب "المنزلة بين المنزلتين".

– كتاب "السبيل إلى معرفة الحق".

– كتاب "الرد على جعفر الصادق" (هذا الكتاب أثار جدلاً كبيرًا).

– كتاب "أصناف المرجئة".

– كتاب "معاني القرآن".

– كتاب "طبقات أهل العلم والجهل".

– كتاب "الخطب في التوحيد والعدل".

منهجه في الدعوة

كان واصل بن عطاء حريصًا على نشر مذهبه بطرق متعددة:

– المحاورات والمجادلات: كان يقوم بها هو وأتباعه مع أصحاب الملل والمذاهب الأخرى.

– التأليف: ألف كثيرًا من الكتب في الفنون المختلفة.

– الفقه: كان يقول: "لولا أني أدعو الناس إلى العلم بالدين بذكر اختلاف الناس في الفتيا ما نظرت في حرف منه، ولكن أطمع بذلك أن أجلبهم إلى العلم".

٣,٢ أبو الهذيل العلاف (ت ٢٣٥هـ / ٨٤٩م) – مدخل الفلسفة

سيرته

هو أبو الهذيل محمد بن الهذيل بن عبيد الله بن مكحول العبدي البصري، مولى عبد القيس.

نشأته:

– تتلمذ على يد عثمان بن خالد الطويل (تلميذ واصل بن عطاء).

– أخذ عن عمرو بن عبيد أيضًا.

– عاش في البصرة ثم انتقل إلى بغداد.

مكانته:

يُعد من كبار شيوخ المعتزلة في الجيل الثاني. يقول عنه المؤرخون: كان أحذق الناس في الجدل، انتهت إليه رياسة المعتزلة في البصرة.

شخصيته:

– كان شديد الذكاء، واسع الاطلاع.

– أول من مزج علم الكلام بالفلسفة اليونانية.

– كان يقول: "ليس بيني وبين الجبائي خلاف إلا في أربعين مسألة".

آراؤه الكلامية والفلسفية

١. التأثر بالفلسفة اليونانية

يُعتبر أبو الهذيل أول من قام بالربط بين قضايا الاعتقاد والتشريع وبين الفلسفة اليونانية. أوغل في هذا الباب، وخلط كلامه بالفلسفة وكلام الفلاسفة.

٢. نظرية الذرة والحركة

كان لأبي الهذيل آراء في الفيزياء والطبيعة:

– قال بوجود الجوهر الفرد (الذرة التي لا تتجزأ).

– قال إن الحركة والسكون من صفات الأجسام.

– طور نظريته في الحركة بناءً على أفكار الفلاسفة اليونانيين.

٣. تطوير نظرية قبول الأخبار

طور مقالة واصل بن عطاء:

– جعل الرواية للأخبار دائمًا في دائرة الريبة.

– أكد أن الاطمئنان والثقة إنما تكون بالمقاييس العقلية وحدها.

٤. مسألة الإرادة والاستطاعة

– قال بقدرة العبد على أفعاله.

– أكد على علم الله بها مسبقًا.

– ربط بين الاستطاعة والفعل: الاستطاعة قبل الفعل لا معه.

مناظراته

كان أبو الهذيل مناظرًا قويًا. يروى أنه دخل على صالح بن عبد القدوس (من الموغلين في الفلسفة) للتعزية في ابنه، فجرت بينهما مناظرة حول الموت والحياة والبعث.

تقييم العلماء له

يرى الدكتور أحمد محمود صبحي أن أبا الهذيل كان شخصية محورية في تطوير المذهب المعتزلي، وأنه أدخل الفلسفة اليونانية إلى علم الكلام بشكل منهجي.

٣,٣ إبراهيم بن سيار النظام (ت ٢٣١هـ / ٨٤٥م) – المبتكر المجادل

سيرته

هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار بن هانئ النظام البصري.

نشأته:

– تتلمذ على يد أبي الهذيل العلاف.

– كان معاصرًا للجاحظ الأديب.

– كانت له فرقة خاصة تنتسب إليه تسمى "النظامية".

شخصيته:

– كان من أذكياء المعتزلة وأكثرهم ابتكارًا.

– تميز بالجرأة الفكرية والجدل الحاد.

– اتهم بالزندقة من قبل خصومه.

آراؤه الكلامية والفلسفية

١. نظريته في التطور (الخلق المستمر)

هذه النظرية جعلته رائدًا لفكرة التطور قبل عصره بقرون:

المفاهيم الأساسية في نظريته:

ت	المصطلح	معناه عند النظام
١.	المداخلة	العالم مكون من عناصر متضادة، والله بقدرته قهر الأشياء على ما يريد
٢.	الكمون	اجتماع الضدين في جسم واحد (كزيتون يحتوي على زيت كمون)
٣.	الطفرة	انتقال الجسم من مكان إلى آخر دون المرور بالأماكن المتوسطة
٤.	الخلق المستمر	العالم في تغير مستمر، والخلق متجدد في كل لحظة

دلالة نظريته:

– كانت نظرية النظام في "الطفرة" تمهيدًا لمفهوم تحول المادة إلى طاقة.

– نظريته في "الخلق المستمر" تعارض المفهوم الأرسطي للكون والفساد.

– فيها تشابه مع النظريات الحديثة في فيزياء الكم والتطور.

٢. إنكار القياس والإجماع

أنكر النظام حجية القياس الفقهي، وأنكر إجماع الأمة كدليل شرعي. هذا الموقف جعله محلاً للنقد من جميع الفرق.

٣. الموقف من الصحابة

يُنقل عن النظام الطعن في بعض الصحابة، وخاصة في قضية الجمل وصفين. هذا الموقف جعله موضع نقد حتى من داخل المذهب المعتزلي.

٤. نظرية المعرفة

كان للنظام آراء في المعرفة:

- المعرفة عند الحس خطأ في كثير من الأحيان.
- العقل هو الذي يصحح أخطاء الحس.
- المعرفة اليقينية لا تتحقق إلا بالعقل وحده.

موقف العلماء منه

تلقى النظام نقدًا لاذعًا من علماء عصره:

يقول عنه ابن قتيبة: "وجدنا النظام شاطرًا من الشطار، يغدو على سكر، ويروح على سكر، ويبيت على جرائرها ويدخل في الأدناس، ويرتكب الفواحش والشائنات".

يقول عنه الجويني (إمام الحرمين): "وما ذكره النظام كفر وزندقة، ومحاولة استئصال قاعدة الشرع".

٣,٤ أبو علي الجبائي (٢٣٥-٣٠٣هـ / ٨٤٩-٩١٦م) – شيخ المعتزلة

سيرته

هو محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي البصري.

نشأته:

- ولد في جبى (من أعمال الأهواز، جنوب غرب إيران) سنة ٢٣٥هـ.
- انتقل إلى البصرة وهو غلام.

– تتلمذ على يد أبي يعقوب الشحام (أحد كبار المعتزلة).

– شهد له المعتزلة جميعًا بالرياسة بعد أبي الهذيل العلاف.

مكانته:

– يُعد شيخ المعتزلة في عصره.

– رئيس مدرسة البصرة.

– كان فقيهًا ورعًا زاهدًا.

– توفي في البصرة سنة ٣٠٣هـ .

قصة اعتزاله مبكرًا

يحكى عنه قصة تدل على ذكائه وجرأته مبكرًا: كان في مجلس للمتكلمين، وحضر صقر (متكلم المجبرة)، فزج أبو علي نفسه – وهو غلام أبيض الوجه – في صدر صقر، وقال له: "أسألك".

فنظر إليه صقر وتعجب من جرأته مع صغر سنه، فقال: "سل".

فقال أبو علي: "هل الله يفعل العدل؟"

قال صقر: "نعم."

قال: "أفتسميه بفعله العدل عادلاً؟"

قال: "نعم."

قال: "فهل يفعل الجور؟"

قال: "نعم."

قال: "أفتسميه جائرًا؟"

قال: "لا يصح ذلك."

قال: "فيلزم ألا تسميه بفعله العدل عادلاً."

فانقطع صقر، وجعل الناس يسألون: "من هذا؟" فقيل: "هو غلام من أهل جبى."

آراؤه الكلامية

١. تنظيم الأصول الخمسة

كان للجبائي دور كبير في تنظيم الأصول الخمسة وتفريع المسائل عليها. جعلها الإطار الجامع لمذهب المعتزلة.

٢. نظرية الصفات

أكد على نفي الصفات الأزلية، وأقام الأدلة العقلية على ذلك:

– "إن الباري سبحانه وتعالى قديم، وقدمه أخص وصفه، فلو ثبتت له صفة قديمة لشاركته في أخص الوصف، والاشتراك في الأخص يوجب الاشتراك في الأعم".

٣. آراؤه في العدل

– قال بخلق أفعال العبد.

– قال بوجوب فعل الصلاح والأصلح على الله.

– قال بأن الاستطاعة قبل الفعل.

– قال بأن المعرفة وشكر النعم ومعرفة الحسن والقبيح واجبات عقلية.

٤. الكبائر والصغائر

كان يرى:

– أن من الذنوب صغائر وكبائر.

– أن الصغائر تستحق غفرانها باجتناب الكبائر.

– أن الكبائر تحبط الثواب على الإيمان.

– أن العزم على الكبيرة كبيرة، والعزم على الكفر كفر.

٥. مسألة أطفال المشركين

كان يرى أن أطفال المشركين من أهل السلامة: لا في الجنة ولا في النار.

مناظراته مع تلميذه أبي الحسن الأشعري

كان أبو الحسن الأشعري تلميذًا لأبي علي الجبائي، ثم خرج عن المعتزلة وأسس مذهبًا جديدًا. حدثت بينهما مناظرات شهيرة:

مناظرة في أسماء الله:

دخل رجل على الجبائي فقال: "هل تجوز تسمية الله عاقلاً؟"

فقال الجبائي: "لا؛ لأن العقل مشتق من العقال (المانع)، والمنع في حقه سبحانه محال."

فقال له الأشعري: "على قياسك لا تجوز تسميته حكيماً، لأن هذا الاسم مشتق من حكمة اللجام (الحديدة المانعة للدابة عن الخروج)..."

فقال الجبائي: "فلم منعت هذا وأجزت ذاك؟"

فقال الأشعري: "إن طريقي في مأخذ أسماء الله، الإذن الشرعي دون القياس اللغوي، فأطلقت حكيماً لأن الشرع أطلقه، ومنعت عاقلاً لأن الشرع منعه، ولو أطلقه لأطلقته".

مؤلفاته

للجبائي تصانيف عديدة، منها:

- كتاب "الأصول".
- كتاب "الأسماء والصفات".
- كتاب "التفسير الكبير".
- كتاب "النهي عن المنكر".
- كتاب "الاجتهاد".
- كتاب "النقض على ابن الراوندي".
- كتاب "الرد على ابن كلاب".
- كتاب "الرد على المنجمين".
- كتاب "من يكفر ومن لا يكفر".

- كتاب "شرح الحديث".

تلاميذه

من أبرز تلاميذه:

- أبو هاشم الجبائي (ابنه، ت ٣١٥هـ) - رئيس فرقة الهاشمية.
- أبو عبد الله الصيمري (ت ٣١٥هـ).
- أبو عمر الباهلي (ت ٣٠٠هـ).
- أبو الحسن الأشعري (ت ٣٢٤هـ) - أشهرهم، لكنه خرج عن المعتزلة.

أبو هاشم الجبائي (ت ٣٢١هـ) - مسألة الأحوال

كان أبو هاشم (ابن أبي علي الجبائي) من كبار المعتزلة، وهو مؤسس فرقة "الهاشمية" أو "البهشمية".

مسألة الأحوال:

- ابتكر أبو هاشم نظرية "الأحوال" لمعالجة مسألة الصفات.
- قال: لله أحوال هي معانٍ غير موجودة ولا معدومة.
- هذه الأحوال هي التي بها يوصف الله.
- هذا القول خالف فيه والده أبا علي، مما أدى إلى انقسام المعتزلة إلى جبائية وهاشمية.

خاتمة عامة

المعتزلة فرقة كلامية مثلت مرحلة متقدمة في تاريخ الفكر الإسلامي. تميزت باعتماد العقل منهجًا أساسيًا في فهم العقيدة وصياغتها، حتى جعلته حاكمًا على النصوص عند التعارض. أصولهم الخمسة التي صاغوها شكلت إطارًا فكريًا متكاملًا، وإن كان موضع نقد من قبل أهل السنة والجماعة.

شخصياتهم البارزة أسهمت في تطوير هذا المذهب:

- واصل بن عطاء: المؤسس الذي وضع الأسس الأولى.
- أبو الهذيل العلاف: المدخل للفلسفة اليونانية.

- إبراهيم بن سيار النظام: المبتكر المجادل الذي سبق عصره بنظرياته في التطور والفيزياء.

- أبو علي الجبائي: المنظم المدقق الذي أرسى قواعد المدرسة البصرية.

- أبو هاشم الجبائي: المبتكر لنظرية الأحوال.

يبقى الإرث المعتزلي حاضرًا في المناهج الكلامية والفلسفية التي تلت، سواء عبر نقدها أو التأثر بها، مما يجعل دراستها ضرورية لفهم تاريخ الفكر الإسلامي ككل. كما أن جدلياتهم حول العقل والنقل، والإيمان والكفر، والعدل الإلهي والحرية البشرية، لا تزال حاضرة في النقاشات الفكرية المعاصرة.

قائمة المصادر والمراجع الأساسية

١. أحمد محمود صبحي: *في علم الكلام* (الأجزاء الثلاثة: المعتزلة، الأشاعرة، الزيدية) – مرجع أكاديمي شامل.

٢. علي سامي النشار: *نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام* – لدراسة التأثيرات الفكرية على المعتزلة.

٣. عمر فروخ: *تاريخ الفكر العربي* – للسياق التاريخي والفكري العام.

٤. القاضي عبد الجبار: *شرح الأصول الخمسة* – مرجع معتزلي أساسي.

٥. أبو الحسين الخياط: *الانتصار* – لبيان أصول المذهب.

٦. محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: *الملل والنحل* – للتعرف على الفرق والمذاهب.

٧. أبو الحسن الأشعري: *مقالات الإسلاميين* – لرصد آراء المعتزلة.

٨. ابن المرتضى: *طبقات المعتزلة* – لتراجم أعلام المعتزلة.

٩. عبد الرحمن بدوي: *تاريخ الفلسفة في الإسلام*.

١٠. مصطفى عبد الرازق: *تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية*.

سلسلة محاضرات في علم الكلام: المدرسة الأشعرية

المحاضرة الأولى: النشأة والتأسيس – لماذا وُلدت الأشعرية؟

أهداف المحاضرة: فهم السياق التاريخي والعقلي الذي أدى إلى ظهور المدرسة الأشعرية، ومعرفة شخصية المؤسس ودوافعه.

١. السياق التاريخي: صراع العقل والنقل

بعد عصر التدوين في القرن الثاني الهجري وترجمة الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية، واجه الفكر الإسلامي تحديات كبرى:

تحديات داخلية: ظهور فرق كلامية مثل (المعتزلة) الذين قدَّموا العقل وأولوياته (مثل العدل الإلهي وحرية الإنسان) على ظاهر النصوص. كما انتشرت أفكار (المجسمة والمشبهة) الذين يأخذون بظاهر النصوص حرفياً.

تحديات خارجية: جدالات مع أصحاب الديانات الأخرى (مسيحيين، يهود، مجوس) ومع الفلاسفة، الذين استخدموا أدوات المنطق والفلسفة.

أزمة "المحنة" (خلق القرآن): التي أثارها المعتزلة بدعم من السلطة (المأمون والمعتصم والواثق)، وأدت إلى اضطهاد مخالفيهم مثل الإمام أحمد بن حنبل. خلقت هذه الأزمة شعوراً عاماً بعدم الثقة في منهج المعتزلة المتشدد.

٢. المؤسس: الإمام أبو الحسن الأشعري (ت ٣٢٤ هـ)

التحول الكبير: كان تلميذاً للقاضي أبي علي الجبائي، زعيم المعتزلة في البصرة، وأتقن فنون الجدل والكلام. ثم (تحول عن الاعتزال) حوالي عام ٣٠٠ هـ، وخلع عليه، وشرع في الرد عليهم.

الدافع من وجهة نظر النشار: يرى الدكتور النشار أن تحول الأشعري لم يكن ردة فعل عاطفية، بل كان "ثورة على العقلانية المجردة" التي أهملت النقل. هدفه كان التوفيق وإيجاد "منهج وسطي" بين النقل الذي تمسك به أهل الحديث (الأثرية)، والعقل الذي أتقنه المعتزلة، للدفاع عن العقيدة الإسلامية في مواجهة الجميع.

طريقة تحوله الشهيرة: يُروى أنه اعتزل الناس في بيته ١٥ يوماً، ثم خرج إلى المسجد الجامع في البصرة وأعلن براءته من الاعتزال، قائلاً: "من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، أنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لا يُرى بالأبصار، وأن أفعال الشر أنا أفعلها... وأنا تائب من الاعتزال".

٣. المراحل الفكرية للأشعري:

١. مرحلة الاعتزال: حيث تشبع بمناهجهم العقلية.

٢. مرحلة التوفيق والتأسيس: بعد تحوله، حيث كتب كتبه الأشهر مثل "الإبانة عن أصول الديانة" و"مقالات الإسلاميين"، ووضع أصول مذهبه الجديد.

٣. (مرحلة التطور لاحقاً): حيث قام تلاميذه وكبار الأشاعرة (مثل الباقلاني والجويني والغزالي) بتطوير وتنظيم أفكاره بشكل أكثر دقة واتساقاً فلسفياً.

خلاصة المحاضرة الأولى:

ظهرت (الأشعرية كحل وسطي) في أزمة منهجية حادة بين أهل النقل (الذي بدا عاجزاً عن مجادلة الخصوم) وأهل العقل (الذين ضيّقوا على النصوص). كانت (حركة دفاع عن العقيدة السنية) بأسلوب كلامي عقلاني، لكنه يخضع للنص الشرعي في النهاية.

المحاضرة الثانية: الطبقات والتطور التاريخي – كيف نضج الفكر الأشعري؟

أهداف المحاضرة: تتبع التطور التاريخي للمدرسة عبر أجيالها (الطبقات)، ومعرفة أبرز أعلام كل مرحلة.

يُقسِّم المؤرخون الأشاعرة إلى (ثلاث أو أربع طبقات) رئيسية:

الطبقة الأولى: مرحلة التأسيس (القرن ٣-٤ هـ)

أبو الحسن الأشعري نفسه: وضع الأساس والمنهج العام ورد على الخصوم.

خصائص هذه المرحلة: لا تزال قريبة من منهج أهل الحديث في كثير من المسائل، والاهتمام بالردود والدفاع أكثر من البناء المنهجي الشامل.

الطبقة الثانية: مرحلة التنظيم والتقعيد (القرن ٤–٥ هـ)

أبرز الأعلام:

أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ): يُلقب بـ "لسان الأشاعرة". هو الذي نظّم المذهب وأعطاه صورته الكلامية المتكاملة. أدخل (علم المنطق) بشكل أكبر في صياغة الأدلة. طوّر نظرية "الكسب" في أفعال الإنسان، ونظرية "الحال" في الصفات. دافع عن المذهب بقوة في كتب مثل "تمهيد الأوائل" و"الإنصاف".

خصائص هذه المرحلة: تحول المذهب من دفاعات إلى (نسق فكري متماسك) له مصطلحاته وأدلته المنطقية.

الطبقة الثالثة: مرحلة النضج والازدهار (القرن ٥–٦ هـ) – عمالقة الأشاعرة

أبرز الأعلام:

أبو المعالي الجويني (إمام الحرمين، ت ٤٧٨ هـ): أستاذ الغزالي. كتب "الإرشاد" و"الشامل". عُرف بقوة الجدل والمناظرة. جاءت كتاباته أكثر تعقيداً وفلسفة. ناقش مسألة (التأويل) بشجاعة.

حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ): العبقري الذي قلب المذهب. دمج الكلام مع المنطق الأرسطي (في كتابه "معيار العلم") ووظفه في خدمة العقيدة. هاجم الفلاسفة في "تهافت الفلاسفة". ثم انتهى به المطاف إلى تفضيل طريقة (التصوف) والعرفان على الجدل الكلامي في مراحله الأخيرة (في "إحياء علوم الدين"). يُعد الغزالي نقطة تحول كبرى في تاريخ الفكر الإسلامي.

الطبقة الرابعة: مرحلة الشرح والتلخيص والانتشار (من القرن ٦ هـ فما بعد)

أبرز الأعلام: الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) صاحب "المطالب العالية" و"نهاية العقول"، والإيجي (ت ٧٥٦ هـ) صاحب "المواقف"، والسعد التفتازاني (ت ٧٩٣ هـ) شارح المواقف.

خصائص هذه المرحلة: أصبح الكلام علماً (مدرسياً) تُكتب فيه الشروح والحواشي والتلاخيص. أصبح المذهب الأشعري هو (المذهب السني الرسمي) الذي تدرسه الجامعات الإسلامية الكبرى (الأزهر، القرويين، الزيتونة) وتتبناه معظم الدول الإسلامية عبر التاريخ.

المحاضرة الثالثة: المنهج والأصول الفكرية – على أي قواعد بنى الأشاعرة فكرهم؟

أهداف المحاضرة: فهم الدعائم المنهجية والعقدية التي تميز بها منهج الأشاعرة.

١. في المنهج: العقل في خدمة النقل

المنهج الوسطي: هو جوهر الأشعرية. لا إفراط المعتزلة في تقديس العقل، ولا تفريط بعض أهل الحديث في إهماله.

دور العقل: مُعترف به، لكن (كمقدمة وليس كمصدر مستقل). وظيفته:

* إثبات أصول الدين الكبرى (وجود الله، النبوة) استقلالاً.

* الدفاع عن النقل وإمكانية صدوره عن الله (دفع التعارض الموهوم بين العقل والنقل).

* فهم النص وتأويله إذا لزم الأمر.

دور النقل (الكتاب والسنة): هو المصدر الحقيقي للمعرفة التفصيلية (صفات الله، اليوم الآخر، الشرائع). العقل خادم له، يؤيده ويدافع عنه.

٢. أهم المسائل العقدية والمواقف الفكرية:

(هنا نعرض نموذجاً لأهم ما ميز الأشاعرة عن غيرهم)

في الصفات الإلهية:

* موقف وسط: يثبتون ما أثبته الله لنفسه (اليد، الوجه، الاستواء...) من غير تشبيه ولا تعطيل.

* آلية "بلا كيف": نؤمن بالصفة ولكن "بلا كيف"، أي من غير أن نتصور لها كيفية تشبه المخلوقات.

* التأويل المقيد: يجوزون التأويل (تفسير المعنى بما يليق بالله) عند (الضرورة القصوى)، كتأويل "اليد" بالقدرة أو النعمة، و"الاستواء" بالقهر والاستيلاء. وهذا يختلف عن المعتزلة (يعطلون الصفة بالكلية) والمجسمة (يأخذونها حرفياً).

في أفعال العباد (قدرة الإنسان وحركته): نظرية "الكسب"

* الإشكال: كيف نوفق بين قدرة الله المطلقة على خلق كل شيء، ومسؤولية الإنسان عن أفعاله؟

* حل الأشاعرة: الله هو (الخالق الحقيقي) لكل فعل، حتى أفعال البشر. ولكن للإنسان "كسب" لهذا الفعل. والكسب هو اقتران قدرة الإنسان (المخلوقة من الله أيضاً) بالفعل في لحظة حدوثه. فأنت تريد وتملك قدرة، والله يخلق الفعل المقترن بهذه الإراقة وتلك القدرة، فأنت "كاسب" للفعل ومسؤول عنه، والله هو "خالقه".

* الهدف: الحفاظ على (التوحيد في الخلقية) لله، مع إثبات (عدله) في محاسبة الإنسان على ما كسب.

في رؤية الله: يؤمنون بإمكانية (رؤية الله في الآخرة) بالبصر، كما هو وارد في النصوص، لكن من غير تكييف ولا تحديد. (وهذا ضد المعتزلة الذين ينفون الرؤية).

في خلق القرآن: يقولون (الكلام النفسي) لله قديم (صفة ذات)، أما (القرآن المُنزّل) المكتوب والمقروء فهو (حادث) (مخلوق بالمعنى العام). (وهذا وسط بين القول بقدم القرآن كلفظ، والقول بخلقه).

في الإيمان: يقولون الإيمان هو التصديق القلبي فقط. والأعمال شرط كمال، وليست جزءاً من حقيقة الإيمان. (مخالفة للخوارج والمعتزلة الذين يجعلون العمل جزءاً من الإيمان).

المحاضرة الرابعة: الخلاصة والتقييم – ما إرث الأشاعرة اليوم؟

أهداف المحاضرة: تقييم أثر المدرسة الأشعرية وتلخيص مآثرها وما نقد عليها.

١. مآثر الأشاعرة وإنجازاتهم:

حماية حياض السنة: كانوا (الدرع الواقي) للعقيدة السنية في وجه التيارات العقلانية المتطرفة والتجسيمية.

تطوير أدوات الدفاع: أدخلوا المنطق والتفكير المنظم في الخطاب العقدي، فرفعوا مستوى الجدل والحوار.

الوسطية والاعتدال: قدموا نموذجاً فكرياً قابلاً للحياة، تبنته الأمة لقرون.

الإعداد للتصوف السني: مهد الغزالي وأتباعه الطريق لدمج التصوف المعتدل (التزكية) ضمن المنظومة السنية الكلامية.

٢. الانتقادات التي وجهت لهم:

من قبل أهل الحديث (السلفية لاحقاً): يتهمونهم بالتفريط في النص واستخدام التأويل، وابتعادهم عن منهج السلف الصالح.

من قبل المعتزلة والفلاسفة: يتهمونهم بالتناقض وعدم الاتساق المنطقي، خاصة في نظريات مثل "الكسب" التي رأوها حلاً لفظياً لا يحل الإشكال الفلسفي الحقيقي.

من بعض المؤرخين المعاصرين: يرون أن اعتمادهم النهائي على النقل جعل علم الكلام يتوقف عن الابتدار (التعجيل أو المسارعة إلى الشيء) بعد الغزالي، وتحول إلى علم "مدرسي" جامد.

٣. الخلاصة النهائية:

الأشعرية لم تكن مجرد فرقة كلامية، بل كانت "المنهج السني المؤسس" الذي صاغ الهوية العقدية للإسلام السني عبر التاريخ. لقد نجحوا في مهمتهم التاريخية الكبرى: (توفير ترسانة عقلية دفاعية) حمت وسطية الأمة في عصر الفتن الفكرية. وإن كان جدل شرعيتهم المنهجية مستمراً بين التيارات الإسلامية حتى اليوم.

الشيعة الإمامية (الاثنا عشرية)

المحاضرة الأولى: التسمية والنشأة

أولاً: التسمية: لماذا سموا شيعة إمامية؟

الشيعة لغة: تعني الأنصار والأتباع. يُقال: "تشيّع الرجل"، أي والى قوماً وتبعهم.

الشيعة اصطلاحاً: هم الذين شايعوا (تابعوا) علي بن أبي طالب رضي الله عنه، واعتقدوا أنه أحق بالخلافة من غيره، وأن الإمامة تكون في نسله من بعده.

الإمامية (الاثنا عشرية): هم أتباع الأئمة الاثني عشر الذين يعتقدون فيهم بالنص والعصمة، وآخرهم محمد بن الحسن المهدي المنتظر عندهم. هذه السلالة هي: علي، الحسن، الحسين، علي زين العابدين، محمد الباقر، جعفر الصادق، موسى الكاظم، علي الرضا، محمد الجواد، علي الهادي، الحسن العسكري، محمد المهدي.

ثانياً: النشأة والتطور التاريخي (وفق رؤيتهم الكلامية):

يميز الباحثون بين مرحلتين رئيسيتين في نشأة التشيع:

١. نشأة التشيع السياسي (في عصر النبوة وبعده):

– يرى الشيعة أن بذور التشيع الأولى ترجع إلى عهد النبي ﷺ، حيث كان فريق من الصحابة (كأبي ذر، وسلمان، والمقداد) يُعرفون بميلهم الخاص وحبهم الشديد لعلي بن أبي طالب. يعتبرون أن حادثة (الغدير) (خطبة النبي في غدير خُم) هي النص الجلي على إمامة علي وخلافته، حيث قال النبي: "من كنت مولاه فعلي مولاه". يعتقدون أن البيعة لأبي بكر كانت انحرافاً عن هذا النص، وأن الإمامة من ذلك الوقت أصبحت حقاً مغتصباً لعلي وأهل بيته.

– من منظور كلامي سنّي، فإن التشيع في هذه المرحلة كان موقفاً سياسياً محضاً، يتمثل في تفضيل علي في الخلافة، ولم يكن له طابع العقائد والمذاهب الكلامية المتكاملة.

٢. نشأة التشيع كفرقة كلامية (نهاية العصر الأموي وبداية العباسي):

– تحول التشيع من موقف سياسي إلى مذهب كلامي متكامل على يد (الإمام محمد الباقر) (ت ١١٤هـ) وابنه (الإمام جعفر الصادق) (ت ١٤٨هـ). في هذه الفترة، اتسعت رقعة الدولة الإسلامية،

ودخلت أمم مختلفة في الإسلام، وكثرت الفرق والمذاهب. اتخذ الإمام جعفر الصادق من المدينة مركزاً له، وانبرى لتأسيس مذهب فقهي وكلامي، فوضع قواعد الإمامية في الاجتهاد وأصول الدين.

– من أهم الأحداث التي صقلت هوية الإمامية الكلامية هو تفرق أصحاب جعفر الصادق بعد وفاته، حيث نشأت فرق مثل (الإمامية) (الذين تمسكوا بإمامة ابنه موسى الكاظم) و(الإسماعيلية) (الذين وقفوا عند إسماعيل ابنه الأكبر). اكتمل بناء المذهب على يد أئمة متتاليين، ثم بدأ عصر (الغيبة) أولاً الغيبة الصغرى (٢٦٠هـ – ٣٢٩هـ)، ثم الغيبة الكبرى (من ٣٢٩هـ حتى الآن)، مما جعل علماء الشيعة نواباً عامين للإمام في زمن غيبته.

المحاضرة الثانية: عقيدة الإمامية في التوحيد والعدل

أولاً: التوحيد

يؤمن الشيعة الإمامية بتوحيد الذات والصفات والأفعال، ويتميز مذهبهم فيه ببعض الدقة اللفظية والنفي الحاد للتشبيه والتجسيم، متأثرين في ذلك بالمعتزلة في نفي الصفات الزائدة عن الذات.

– توحيد الذات: الله واحد لا شريك له، ليس بجسم ولا صورة ولا جوهر.

– توحيد الصفات: يعتقدون أن صفات الله (كالعلم والقدرة والحياة) هي عين ذاته، وليست زائدة عليها. فالله عالم بعلم هو ذاته، وليس بصفة قديمة قائمة به. وهذا قولهم: "كمال الإخلاص له نفي الصفات عنه".

– توحيد الأفعال: لا مؤثر في الوجود إلا الله، لكنهم يثبتون للإنسان قدرة وفعلًا حقيقيًا على طريقة "الأمر بين الأمرين" (وهي نظرية وسط بين الجبر والتفويض، وسيأتي تفصيلها في باب العدل).

– أسماء الله: أسماؤه تعالى كلها حسنى، وهي تدل على ذاته وصفاته، لكنها ليست هي الذات ولا غيرها.

ثانياً: العدل

العدل هو ثاني أصول الدين عند الإمامية، وقد أخذوه عن المعتزلة حتى سموا "العدلية" معهم، وإن اختلفوا في بعض التفاصيل.

– تعريفه: معناه أن الله تعالى عادل لا يظلم أحداً، ولا يفعل قبيحاً، ولا يخل بواجب. ويترتب على هذا أن الإنسان هو الفاعل الحقيقي لأفعاله خيراً وشراً، وأن الله لا يعذب أحداً بلا ذنب، ولا يكلف نفساً إلا وسعها.

– الأمر بين الأمرين (نظرية الفعل الإنساني): هي أشهر نظرياتهم الكلامية. وهي وسط بين قول المعتزلة (المفوضة: الإنسان يخلق فعله بنفسه استقلالاً) وبين قول المجبرة (الله يخلق الفعل والإنسان مجبر عليه). يقول الإمامية: لا جبر ولا تفويض، بل أمر بين أمرين. وتفسيرها: أن الله هو الخالق لقدرة الإنسان واختياره، والإنسان هو الفاعل لفعله بهذه القدرة التي خلقها الله فيه، فالفعل يضاف إلى الله من جهة الخلق، ويضاف إلى العبد من جهة الكسب والاختيار. وهو قريب جداً من نظرية الأشاعرة (الكسب) مع اختلاف في التعبير.

المحاضرة الثالثة: عقيدة الإمامية في النبوة والمعاد

أولاً: النبوة

تتفق الإمامية مع جمهور المسلمين في وجوب الإيمان بالأنبياء والمرسلين، وأن محمداً ﷺ خاتمهم، إلا أنهم يضيفون شرطين رئيسيين في تعريف النبوة:

١. العصمة: يجب أن يكون النبي معصوماً من الذنوب صغيرها وكبيرها، قبل البعثة وبعدها. ويعتقدون أن هذه العصمة ثابتة لجميع الأنبياء، وهي ضرورية لتحقيق الثقة بهم في تبليغ الرسالة.

٢. الأفضلية: النبي يجب أن يكون أفضل أهل زمانه. لذلك، يعتقدون أن علياً كان أفضل الأمة بعد النبي ﷺ، ولذلك كان الأحق بالإمامة (وهذا يربط النبوة بالإمامة).

ثانياً: المعاد

يؤمن الإمامية باليوم الآخر وبكل ما جاء فيه من حساب وجنة ونار، ولا يختلفون في أصوله عن بقية الفرق الإسلامية. لكن لديهم بعض التفاصيل الخاصة، مثل:

– شفاعة النبي والأئمة: يؤمنون بشفاعة النبي ﷺ وبشفاعة الأئمة المعصومين للمذنبين من شيعتهم، ولها شروطها عندهم.

– الرجعة: وهي عقيدة خاصة بالشيعة الإمامية (وإن كان فيها خلاف بين علمائهم في التفاصيل). تعني الرجعة أن الله سيعيد قوماً من الأموات إلى الدنيا في آخر الزمان قبل يوم القيامة؛ لينتقم للأولياء من الأعداء، وليكونوا من أنصار المهدي عند قيام دولته. يعتقدون أن الرجعة خاصة بمن بلغ الغاية في الإيمان أو الغاية في الكفر.

– القائم (المهدي): هو جزء من عقيدة المهدي المنتظر، وهو الإمام الثاني عشر، الذي يعتقدون أنه حي يرزق في غيبته، وسيظهر ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً.

المحاضرة الرابعة: عقيدة الإمامة (محور الاختلاف الأكبر)

الإمامة هي أصل الأصول عند الإمامية، وهي التي تفصلهم عن باقي الفرق الإسلامية. هي ركن الدين الذي لا يتم الإيمان إلا به.

تعريف الإمامة: "رياسة عامة في أمور الدين والدنيا لشخص من الأشخاص نيابة عن النبي ﷺ".

شروط الإمامة عند الإمامية:

١. النص: يجب أن ينص النبي أو الإمام السابق على الإمام الجديد. لا تجوز الإمامة بالاختيار أو الشورى، لأنها كالنبوة لطف من الله يجب أن يختار لها المعصوم.

٢. العصمة: يجب أن يكون الإمام معصوماً عن الذنوب والخطأ مثل النبي تماماً، لأنه حافظ الشريعة.

٣. الأفضلية: الإمام هو أفضل الناس في زمانه.

٤. العلم: أن يكون أعلم الناس بالشريعة وأصول الدين وأحكامها.

٥. النسب: أن يكون من نسل علي وفاطمة (قريشياً هاشمياً).

ما هي وظائف الإمام؟

– حماية الشريعة وبيان الأحكام.

– إقامة الحدود وتنفيذ الأحكام.

– قيادة الأمة سياسياً واجتماعياً (في حال الظهور).

– هو الحجة على الناس، والأرض لا تخلو من حجة (إمام) إلى يوم القيامة.

المحاضرة الخامسة: نماذج من أعلام المتكلمين الإمامية وآرائهم

أولاً: هشام بن الحكم (ت ١٧٩هـ – ١٩٩هـ تقريباً)

– نبذة عنه: هو من كبار متكلمي الشيعة في القرن الثاني الهجري، وكان من أصحاب الإمام جعفر الصادق والإمام موسى الكاظم. عُرف بذكائه الحاد وجدله القوي في مناظرة المخالفين، خاصة المعتزلة والزنادقة.

– أبرز آرائه الكلامية:

– في الإمامة: كان من أشد المدافعين عن إمامة الأئمة بالنص، وقد وضع كثيراً من أسس الدليل على وجوب الإمامة في كل عصر.

– في الصفات الإلهية (التوحيد): له آراء دقيقة ومثيرة للجدل حتى داخل المذهب الشيعي. مثلاً، قال في معرفة الله: إن الله يُعرف ببعض صفاته التي هي غيره (وهو ما انتقده المتكلمون الإماميون لاحقاً). كما قال بأن لله "جسم لا كالأجسام"، بمعنى أنه موجود قائم بذاته (وهو تأويل مختلف للتجسيم)، مما جعله عرضة لانتقادات شديدة من المعتزلة والإمامية المتأخرين كالشيخ المفيد.

ثانياً: الشيخ المفيد، محمد بن محمد بن النعمان (ت ٤١٣هـ)

– نبذة عنه: هو أعظم مجدد للمذهب الإمامي في عصره. يُلقب بـ "ابن المعلم". عاش في بغداد في فترة ازدهار علم الكلام، وكان أستاذاً للكبار. أخذ من العقلانية المعتزلية وصاغ بها العقيدة الإمامية، لكنه حافظ على خصوصيتها. من أشهر كتبه: "أوائل المقالات" و "الإرشاد" في سيرة الأئمة.

– أبرز آرائه الكلامية:

– في القدر (الأمر بين الأمرين): صاغ نظرية الأمر بين الأمرين بشكلها الناضج، موضحاً أن قدرة العبد هي من الله، وأن العبد هو المحدث لفعله بتلك القدرة، فلا جبر ولا تفويض.

– في الإمامة: أكد على عصمة الأئمة بالنص القرآني (آية التطهير مثلاً) وبالأدلة العقلية.

– في صفات الله: تبنى مذهب المعتزلة في نفي الصفات الزائدة عن الذات، ورفض التأويلات التي أدخلت الجسمية على الله.

– في الصحابة: كان له منهج وسط بين الغلاة في التكفير وبين من يقدس الجميع، فهو يميل إلى تخطئة الكثير من الصحابة (الذين خالفوا إمامة علي) لكنه لا يكفرهم إلا بشروط معينة.

ثالثاً: العلامة الحلّي، الحسن بن يوسف بن المطهر (ت ٧٢٦هـ)

– نبذة عنه: هو أشهر متكلمي الإمامية على الإطلاق في العصور المتأخرة. كان موسوعياً جمع بين العقل والنقل. له دور كبير في ترويج المذهب الإمامي في بلاد فارس بعد أن اعتنق سلطان المغول "أولجايتو" التشيع على يديه. من أشهر كتبه: "نهج الحق وكشف الصدق" و "كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد" (وهو شرحه لكتاب أستاذه نصير الدين الطوسي).

– أبرز آرائه الكلامية:

– في الدليل على الإمامة: أقام براهين عقلية ونقلية على أن الإمامة لطف من الله، وأن النص والعصمة أمران عقليان ضروريان لاستمرار الشريعة.

– في التوحيد والعدل: يعتبر أن كتابه "كشف المراد" هو المرجع الأساسي لعلم الكلام الإمامي، حيث شرح فيه أصول الاعتقاد على طريقة الحكماء والمتكلمين، ممزوجة بمنطق أرسطو وفلسفة ابن سينا. شرح فيه معنى العدل ومسألة التحسين والتقبيح العقليين بشكل مفصل.

– في الاجتهاد: كان من أوائل من فتح باب الاجتهاد على مصراعيه في المذهب الشيعي، ونظّم قواعده، مما ساهم في تطور الفقه الشيعي والأصولي لاحقاً.

خاتمة الملزمة:

هذه نظرة موجزة عن الشيعة الإمامية كفرقة كلامية. ينبغي للطالب أن يركز على أن (الإمامة) هي جوهر الخلاف، وأن بقية الأصول (توحيد، عدل، نبوة، معاد) تشترك فيها مع المعتزلة في كثير من المباني، لكنها تصب في النهاية في خدمة إثبات تلك الإمامة. كما أن التطور الكلامي لهذه الفرقة يظهر مدى تأثرها بعلم الكلام المعتزلي من جهة، وفلسفة المشائين من جهة أخرى، مع الحفاظ على النصوص المقدسة الخاصة بها.